«ليكونوا واحدًا»
إستمراريّة وتجدّد في الحركة المسكونيّة[1]

المطران أنطوان أودو *

كثيرًا ما يطالب المؤمنون في شرقنا العربيّ المسؤولين في الكنيسة بتوحيد عيد الفصح للتعبير عن وحدة المسيحيّين وبالتالي عن وحدة المصير في عالم تتجاذبه تساؤلات كثيرة. فالعودة إلى قراءة نصّ رسميّ صادر عن قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني: ليكونوا واحدًا تضعنا أمام متطلّبات الوحدة وتعلّمنا قراءة التاريخ بصبر وموضوعيّة. فالمسألة ليست فقط في أن نعيّد عيد الفصح معًا بقدر ما هي اهتداء إلى الإنجيل واحترام للتاريخ وثقافاته المتعدّدة.

ففي الرسالة التي نحن في صدد دراستها استمراريّة من حيث هي تعمّق في القرار المجمعيّ حول «الحركة المسكونيّة» (الفصل الأوّل)، وعرض للمسيرة المسكونيّة منذ ثلاثين سنة (الفصل الثاني) ونظرة جديدة حول مسألة الأوّليّة في كرسيّ رومة (الفصل الثالث). فما نتوخّاه من هذا المقال هو أن ننطلق أوّلًا من فكرة الشركة ومعنى الأوّليّة وهما فكرتان جوهريّتان في الرسالة، ثمّ نعرض الفصول الثلاثة كما وردت أعلاه، ممّا يقودنا في آخر المطاف إلى أن نستنتج الأفكار الجديدة التي تطرحها

(*) مطران حلب وتوابعها على الكلدان.

(١) تاريخ كتابة الرسالة هو الثاني والعشرون من أيّار ١٩٩٥ وقد تمّ توزيعها في الثلاثين من الشهر عينه.

الرسالة حول دور أسقف رومة في خدمة الشركة بين الكنائس[٢].

* * *

تمهيد: فكرة الشركة ومعنى الأوّليّة

في قانون إيمان الرسل يعلن المسيحيّ أنّ الكنيسة التي يؤمن بها هي شركة جميع القدّيسين، كما تعلن أغلبيّة الليترجيّات الشرقيّة في القدّاس الإلهيّ «الأقداس للقدّيسين» قبل التقدّم لقبول جسد الربّ ودمه. فالمؤمنون وهم «القدّيسون» يتغذّون من جسد المسيح ودمه «الأقداس»، لكي ينموا في شركة الروح القدس ويشهدوا لها في العالم[٣].

تشدّد الرسالة «ليكونوا واحدًا» على فكرة الشركة في الكنيسة، فبقدر ما تحقّق الكنيسة الشركة بين أبنائها تصبح بالنسبة إلى جميع الناس سرَّ الوحدة. وتتوقّف الرسالة مطوّلًا عند إرادة المسيح الواضحة في الوحدة ونجد ذلك في المقطع الذي يشير إلى الكلمات التي تتحدّث عن الوحدة:

«والمؤمنون هم واحد لأنّهم، في الروح، هم في شركة الابن، وبه في شركته مع الآب: وشركتنا نحن، إنّما هي شركة مع الآب ومع يسوع المسيح ابنه» (١ يوحنّا ١/ ٣). وفي نظر الكنيسة الكاثوليكيّة، أنّ شركة

---

(٢) صدرت مقالات عديدة حول الرسالة، إليك لائحة ببعضها باللغة الفرنسيّة

E. Lanne, «L'Encyclique *Ut unum sint*: une étape en oecuménisme», dans *Irénikon* 68 (1995), pp. 214-229.

J.M.J. Tillard, «Du décret conciliaire sur l'oecuménisme à l'Encyclique *Ut unum sint*, dans *Documentation catholique* 92 (1995), pp. 900-903.

Michel Kubler, «Une encyclique pour l'unité», *Etudes*, février 1996, pp. 241-247.

Bernard Sesboüé, «Le Ministère de communion du Pape», *Etudes*, juin 1996, pp. 805-808.

D. Sicard, «L'Encyclique *Ut unum sint*, Une étape - Clé de l'après - Vatican II?», *Nouvelle Revue Théologique* 118 (1996) pp. 340-362.

Pierre Vallin, «Le Saint - Siège dans les relations internationales», *Etudes*, septembre 1996, pp. 219-227.

(٣) راجع التعليم المسيحيّ الكاثوليكيّ رقم ٩٤٨: «إنّ للعبارة «شركة القدّيسين» معنيين مترابطين أشدّ الارتباط: «الشركة في الأقداس» و«الشركة بين القدّيسين». راجع أيضًا الأرقام ٩٦٠ و٩٦١ و١٣٣١.

المسيحيّين ليست سوى إعلان النعمة فيهم، النعمة التي بها يجعلهم الله أعضاءً في شركته الخاصّة التي هي حياته الأبديّة. إنّ كلمات يسوع «أن يكونوا واحدًا» هي إذن الصلاة التي وجّهها إلى الآب كي ينفّذ قصدُه كاملًا، و«يوضح [للجميع] ما تدبير هذا السرّ، المكتوم منذ الدهور في الله الخالق كلّ شيء» (أفسس ٣/ ٩). الإيمان بالمسيح يعني أن نريد الكنيسة؛ وأن نريد الكنيسة يعني أن نريد شركة النعمة التي تلبّي قصد الله منذ الأزل. ذلك هو معنى صلاة المسيح: «ليكونوا واحدًا»[٤].

يتحدّث سفر أعمال الرسل عن واقع الكنيسة التي تعيش بوحي من الروح القدس الذي يحملها على حياة الشركة. ففي الفصول الأولى منه، لدينا ثلاث لوحات رائعة تتحدّث عن اندفاع المسيحيّين الأوائل المواظبين على الصلاة وكسر الخبز وتعليم الرسل والمشاركة (رسل ٢/ ٤٢-٤٧ و٤/ ٣٢-٣٥ و٥/ ١٢-١٦). إلّا أنّ هذه الحياة التي تكاد تكون مثاليّة، لا تخلو من الشوائب. فإنّ قصّة حنتيا وامرأته سفيرة في الفصل الخامس تأتي لتذكّر أنّ هناك روحًا مناهضًا لروح الشركة يَظهر في الخوف من العطاء والمشاركة والثقة وينتهي بموت قاس ينهال على شخصيّتين في الكنيسة وهما حنتيا وامرأته سفيرة.

وإن شدّدت الرسالة البابويّة على الاهتداء الفرديّ والجماعيّ، وضرورة التسامح والمصالحة وأهمّيّة مراجعة الضمير، فذلك لأنّ تلاميذ المسيح معرّضون مثل باقي الناس لتجارب من مجال التملّك والتسلّط والتفرّد بالمعرفة. يبدو لنا أنّ الرسالة تلخّص في المقطع التالي تاريخًا طويلًا من انقسامات المسيحيّين:

«إنّ خطايا العالم قد رُفعت في ذبيحة المسيح الخلاصيّة، إذن أيضًا الخطايا التي اقتُرفت ضدّ وحدة المسيحيّين، خطايا المسيحيّين، الرعاة منهم ليس أقلّ من المؤمنين. وحتّى بعد الخطايا العديدة التي نجمت عنها الانقسامات التاريخيّة، لا تزال وحدة المسيحيّين ممكنة، شرط أن نمي

(٤) الرسالة ليكونوا واحدًا رقم ٩.

بتواضع أنّنا أخطأنا ضدّ الوحدة، وأن نقتنع من ضرورة توبتنا. وليست هي الخطايا الفرديّة وحسب التي يجب أن تُغفر وتتخطّاها، ولكن أيضًا الخطايا الاجتماعيّة، وإذا صحّ القول «بنيات» الخطيئة نفسها التي جرّت ويمكن أن تجرّ إلى الانقسام وتثبّته»[٥].

أمّا في موضوع معالجة مسألة الأوّليّة في كرسيّ رومة فقد لاحظ أكثر من معلّق على هذه الرسالة ما فيها من جرأة في مجال الحديث على سلطة خليفة بطرس وبولس. فالبابا يوحنّا بولس الثاني يقول في آخر الرسالة حول خدمة أسقف رومة للوحدة:

«وفقًا للتعبير الجميل الذي تفوّه به البابا غريغوريوس الكبير، فإنّ خدمتي هي خدمة خادم خدّام الله. إنّ هذا التحديد هو الحامي الأكبر ضدّ خطّ فصل السلطة (وبالأخصّ الأولويّة) عن الخدمة، ممّا يشكّل مناقضًا ومفهوم السلطة حسب الإنجيل: «أنا في وسطكم كالذي يخدم» (لوقا ٢٢/ ٢٧)... إنّ اعتقاد الكنيسة الكاثوليكيّة المرئيّة وضمانة الوحدة في خدمة أسقف رومة، يشكّل عقبةً لغاليّة المسيحيّين الآخرين الذين دفعت ذاكرتهم بعض الذكريات الأليمة. فممّا نحن مسؤولون أطلب الغفران، كما فعل سلفي بولس السادس»[٦].

وفي مجال الحديث عن وظيفة بطرس، انطلاقًا من تفسير نصوص الإنجيل، يتوقّف يوحنّا بولس الثاني عند ضعف بطرس وبولس الذي يكشف عن قوّة النعمة الإلهيّة:

«إنّه لمن المهمّ أن نلاحظ أنّ ضعف بطرس وبولس يؤكّد أنّ الكنيسة ترتكز على قدرة النعمة التي لا نهاية لها (انظر متّى ١٦/ ١٧)؛ (٢ كو ١٢/ ٧-١٠). فبطرس، حالًا بعد توليته السلطة، يؤنّبه المسيح بقساوة نادرة، قائلًا: «إنّك لي معثرة» (متّى ١٦/ ٢٣). فكيف يمكن ألا نرى في الرحمة

---

(٥) المرجع نفسه رقم ٣٤.

(٦) المرجع نفسه رقم ٨٨. تُرجمت كلمة primauté في هذا النصّ بـ«أولويّة»، والأصحّ «أوّليّة».

التي يحتاج إليها بطرس رابطًا مع خدمة تلك الرحمة نفسها التي كان هو الأوّل ليختبرها؟...

«إنّ أسقف رومة، وريث رسالة بطرس في الكنيسة التي أخصبها دم زعيمَي الرسل، يمارس خدمته النابعة من مختلف مظاهر رحمة الله، الرحمة التي تردّ القلوب وتمنح قوّة النعمة، حيثما التلميذ يعرف الطعم المرّ لضعفه وشقائه. إنّ السلطة الخاصّة بهذه الخدمة موضوعة كلّها في تصرّف تدبير الرحمة الإلهيّة، ويجب على الدوام أن ننظر إليها من وجهة النظر هذه. وسلطانها يفهم بهذا المعنى»[٧].

تحملنا هذه الرسالة على اكتشاف معنى جديد للسلطة. فالسلطة قد تعني التمركز، أو وضع حدود الأمور وترتيبها بشكل هرميّ. أمّا السلطة بالمعنى الإنجيليّ للكلمة فهي تدفع إلى النموّ، وإلى التشجيع وعلى اكتشاف الأمور الإيجابيّة وعلى جعل الآخر يقف على رجليه. أليس هذا هو موقف يسوع في الإنجيل في لقاءاته مع الناس: مخلّع كفرناحوم، زكّا العشّار، لصّ اليمين، السامريّة، المرأة الزانية، المرأة المنذوفة، الكنعانيّة وبطرس الرسول؟ فالاهتداء هو في اكتشاف المعنى الإنجيليّ للسلطة، هو في تحويل السلطة إلى خدمة:

«إنّ السلطة الخاصّة بهذه الخدمة موضوعة كلّها في تصرّف تدبير الرحمة الإلهيّة، ويجب على الدوام أن ننظر إليها من وجهة النظر هذه. وسلطانها يُفهم بهذا المعنى»[٨].

الفصل الأوّل من الرسالة

إنّ الفصل الأوّل من الرسالة (الأرقام ٥-٤٠) وعنوانه «التزام الكنيسة الكاثوليكيّة العمل المسكونيّ» هو عبارة عن شرح حديث «للقرار المجمعيّ في الحركة المسكونيّة» وما يتعلّق به من نصوص مثل «البيان في

(٧) المرجع نفسه رقم ٩١-٩٢.
(٨) المرجع نفسه رقم ٩٢.

الحرّيّة الدينيّة». فالأرقام ٧ وحتّى ١٤ في الرسالة تحمل عنوان «الطريق المسكونيّة: طريق الكنيسة»

لنستعرض هذا الفصل ولنتوقّف عند بعض أفكاره الهامّة.

١ - لم تصل بعد الكنيسة إلى الوحدة الكاملة التي أرادها المسيح: «إنّ مثل هذا التفتّت يتعارض صراحة مع إرادة المسيح؛ وهو للعالم حجرُ عثرة، وعقبة في طريق أقدس الغايات، أي الدعوة بالإنجيل في الخليقة كلّها»[٩].

٢ - ليس هناك من روح مسكونيّة من دون اهتداء للإنجيل: «وإنّه ما من سبيل إلى قيام حركة مسكونيّة حقيقيّة بدون ما تجدّد في الباطن»[١٠]. ولذا لا بدّ من ولوج طريق الاهتداء الشخصيّ والجماعيّ في آن لمَن أراد أن يخوض في العمل المسكونيّ.

٣ - الصلاة، والصلاة المشتركة هي روح الحركة المسكونيّة: «إنّ هذين التجدّد في الباطن والقداسة في السيرة، متّحدين بالصلوات الجمهوريّة والفرديّة لأجل الوحدة بين المسيحيّين، يجب أن يُعَدّا بمثابة الروح للحركة المسكونيّة برمّتها، وأن يسمّيا بحقّ المسكونيّة الروحيّة»[١١].

٤ - «والحوار لم يباشر به وحسب، بل إنّه أصبح ضرورة صريحة وإحدى أوّليّات الكنيسة»[١٢]. وهو حوار يقوم على الإصغاء للآخر وعلى الاهتداء والخلاص[١٣] وعلى تجديد أساليب التعبير: «والتجدّد في

---

(٩) المرجع نفسه رقم ٦ وهو استشهاد بالمجمع الڤاتيكانيّ الثاني، قرار مجمعيّ «الحركة المسكونيّة» (Unitatis redintegratio)، رقم ١.

(١٠) المرجع نفسه رقم ١٥ وهو استشهاد بالمجمع الڤاتيكانيّ الثاني، «الحركة المسكونيّة»، راجع الحاشية السابقة، رقم ٧.

(١١) المرجع نفسه رقم ٢١ وهو استشهاد كما سبق بالقرار المجمعيّ «الحركة المسكونيّة» رقم ٨.

(١٢) المرجع نفسه رقم ٣١.

(١٣) المرجع نفسه رقم ٣٥.

أشكال التعبير يصبح ضروريًا لكي تنقل إلى إنسان اليوم بُشرى الإنجيل في معناه الذي لا يتبدّل. «لهذا التجدّد إذن قيمة مسكونيّة بالغة الشأن». فالمقصود ليس فقط أن نجدّد أسلوب التعبير عن الإيمان، بل أيضًا أسلوب عيش هذا الإيمان»[١٤]. كما أنّه لا بدّ من تجاوز القراءات المجزوءة: «أمّا المناظرات والمجادلات المتعصّبة فقد حَوّلت إلى تأكيدات متنافرة ما كان في الواقع نتيجة نظرين يبحثان عن الحقيقة نفسها، ولكن من وجهتي نظر مختلفتين. فيجب اليوم إيجاد أسلوب يفهم تلك الحقيقة برمّتها ويسمح بتخطّي قراءات مجزوءة ويُقصي تفسيرات خاطئة»[١٥].

٥ – «إنّ هذا التعاون المرتكز على الإيمان المشترك تثريه الشركة الأخويّة، بل هو أيضًا ظهور للمسيح نفسه»[١٦].

الفصل الثاني من الرسالة

أمّا الفصل الثاني من الرسالة وعنوانه «ثمار الحوار» (الأرقام ٤١–٧٦) فيتوقّف عند الخطوات التي خطتها الحركة المسكونيّة خلال الثلاثين سنة المنصرمة ويستنتج: «لأوّل مرّة في التاريخ، يبلغ العمل من أجل اتّحاد المسيحيّين مثل هذه الأبعاد ويتّسع مثل هذا الاتّساع. إنّ في ذلك لنعمةً عظيمةً منحها الله وتستحقّ كلّ الشكران»[١٧].

ففي هذا الفصل تستشهد الرسالة بالوثائق التي صدرت عن مجلس الكنائس ولا سيّما عن اللجنة «الإيمان والنظام» وعن مجلس العمل المشترك بين مجلس الكنائس والكنيسة الكاثوليكيّة، وعن اللجان اللاهوتيّة الدوليّة بين الكاثوليك والأرثوذكس والأنكليكان واللوثريّين وكنائس الإصلاح الأخرى وأخيرًا كلّ ما صدر عن الإعلانات

---

(١٤) المرجع نفسه رقم ١٩.
(١٥) المرجع نفسه رقم ٣٨.
(١٦) المرجع نفسه رقم ٤٠.
(١٧) المرجع نفسه رقم ٤١.

الكريستولوجيّة المشتركة بين الكنيسة الكاثوليكيّة وكنائس الشرق القديمة. تشير أيضًا الرسالة إلى وثيقة ليما: المعموديّة، الإفخارستيّا والخدمة، كما أنّها تذكر الوثيقة حول الشرح المسكونيّ المشترك لقانون إيمان نيقية - القسطنطينيّة: إعلان الإيمان المشترك. وتتوقّف الرسالة عند الترجمة المسكونيّة المشتركة للكتاب المقدّس[١٨]. فذكر هذه الترجمة المسكونيّة والحديث عن الأب پول كوتوريه، أحد روّاد الحركة المسكونيّة والأخت ماري - كبريل التي كرّست حياتها لقضيّة الوحدة[١٩] كلّها أمور تشدّد على ضرورة التقدّم في طريق الشركة: «وينجم عن ذلك أنّ نشدان وحدة المسيحيّين ليس عملًا اختياريًّا واعتباطيًّا، بل واجب يفرضه تكوين الجماعة المسيحيّة نفسه[٢٠].

وتستعرض الرسالة مطوّلًا العلاقات بين الكنيسة الكاثوليكيّة والكنيسة الأرثوذكسيّة. لقد نسجت الكنيستان علاقات أخويّة «ولقد تمثّل التبدّل التاريخيّ الحاصل بالقرار الكنسيّ الذي بفضله أزيل من حافظة الكنائس ووسطها ذكر الحرومات التي شكّلت منذ تسع مئة عام، في العام ١٠٥٤ رمز الانشقاق بين رومة والقسطنطينيّة. إنّ هذا الحدث الكنسيّ ذا البعد المسكونيّ الرفيع جرى في الأيّام الأخيرة من المجمع، في السابع من كانون الأوّل ١٩٦٥. وهكذا اختتم المجمع أعماله بقرار رسميّ كان في الوقت نفسه تنقيه للحافظة التاريخيّة وغفرانًا متبادلًا والتزامًا متضامنًا للبحث عن الشركة»[٢١]. وعادة إطلاق تسمية «الكنائس الشقيقة» هو خطوة بالغة الأهمّيّة على الطريق نحو ملءِ الشركة[٢٢]. وفي الفصل الثاني أيضًا يعرب البابا يوحنّا بولس الثاني عن فرحه في الخطوات التي حقّقتها الحركة المسكونيّة في العلاقات مع الكنائس الشرقيّة القديمة:

---

(١٨) المرجع نفسه رقم ٤٤.
(١٩) المرجع نفسه رقم ٢٧. راجع أيضًا في نصّ الرسالة الحاشية رقم ٥٠.
(٢٠) المرجع نفسه رقم ٤٩.
(٢١) المرجع نفسه رقم ٥٢.
(٢٢) المرجع نفسه رقم ٥٦.

«وتعبيرًا عن الفرح الذي يغمرني أردّد كلمات العذراء نفسها: «تعظّم نفسي الربّ» (لوقا ١/٤٦)[٢٣].

في آخر هذا الفصل تتحدّث الرسالة عمّا حقّقته الكنيسة الكاثوليكيّة في الحوار مع الجماعات الكنسيّة في الغرب، ولا سيّما بالنسبة للمذاهب المنبثقة عن الإصلاح: «إنّ قسمًا كبيرًا من زياراتي الراعويّة كرّس بانتظام للشهادة من أجل وحدة المسيحيّين. والبعض من أسفاري يبرز «أولويّة» مسكونيّة، بالأخصّ في البلدان التي تشكّل فيها الجماعات الكاثوليكيّة أقلّيّة بالنسبة إلى المذاهب المنبثقة من الإصلاح، أو في البلدان حيث تشكّل تلك المذاهب جزءًا كبيرًا من المؤمنين بالمسيح»[٢٤].

الفصل الثالث من الرسالة

إنّ عنوان الفصل الثالث وهو «أين نحن من المسيرة؟» (الأرقام ٧٧-٩٩) يشدّد كما نلاحظ على فكرة المسيرة المستمرّة إلى أن نصل إلى ملء الوحدة. فما عاشته الكنائس في الثلاثين سنة المنصرمة ليس إلّا مرحلة ولا شكّ إيجابيّة ومشجّعة. فاجتماع مجلس الكنائس المسكونيّ في كامبيرا (١٩٩١) واجتماع لجنة «الإيمان والنظام» في سان جان دي كومبوستيل (١٩٩٣) تبرهن على أنّ المسيحيّين متّفقون على أنّه انطلاقًا «من هذه الوحدة الأساسيّة المجتزأة، علينا أن ننطلق الآن إلى وحدةٍ ظاهرة ضروريّة وكافية، تنسبك في الحقيقة الواقعيّة، كي تحقّق الكنائس فعلًا علامة الشركة الكاملة في الكنيسة الواحدة، المقدّسة، الجامعة، والرسوليّة، ويعبَّر عنها في الاحتفال المشترك بالإفخارستيّا»[٢٥].

وفي سبيل متابعة المسيرة تعدّد الرسالة خمس مواضيع لا بُدّ من التعمّق فيها للوصول إلى إجماع في الإيمان[٢٦]:

---

(٢٣) المرجع نفسه رقم ٦٢.
(٢٤) المرجع نفسه رقم ٧١.
(٢٥) المرجع نفسه رقم ٧٨.
(٢٦) المرجع نفسه رقم ٧٩.

١ – الكتاب المقدّس والتقليد
٢ – الإفخارستيّا
٣ – الرسامة كسرٍ ثلاثيّ الخدمة
٤ – السلطة العليا في الكنيسة للتعليم والمحافظة على الإيمان
٥ – العذراء مريم أمّ الله وأيقونة الكنيسة.

يشدّد أخيرًا هذا الفصل على اعتبار النتائج التي وصلت إليها الكنائس مكتسبات مشتركة:

«فيما يُتابع الحوار حول مواضيع جديدة، أو يتطوّر على مستوى أعمق، أنيطت بنا مسؤوليّة جديدة، علينا تنفيذها، ألا وهي تقبّل النتائج المكتسبة حتّى الآن. فلا يمكنها أن تبقى تأكيدات صادرة عن لجان ثنائيّة، بل يجب أن تصبح إرثًا مشتركًا... في هذا كلّه، إنّه لمن المفيد جدًّا، على الصعيد المنهجيّ، أن نلتزم التمييز بين وديعة الإيمان والأسلوب الذي يعبّر به عنه، كما أوصى بذلك البابا يوحنّا الثالث والعشرون في الخطاب الذي ألقاه لدى افتتاح المجمع الفاتيكانيّ الثاني»[٢٧].

وقبل أن تتحدّث الرسالة عن دور أسقف رومة في خدمة الوحدة، وهذا ما سوف ندرسه في القسم الأخير من المقال، تتوقّف في الأعداد ٨٢–٨٥ عند أهمّيّة فكرة الشركة في الإيمان النابعة من دم الشهداء الذي سكبته كلّ الجماعات الكنسيّة في سبيل المسيح، ومن حياة القدّيسين الذين عاشوا حياةً أمينة للنعمة:

«لقد سبق أن لاحظت بفرح أنّ الشركة ثابتة وحقيقيّة وإن تكن ناقصة، وأنّها تنمو على مختلف مستويات الحياة الكنسيّة. وأرى أنّها بلغت الكمال في ما نعتبره جميعنا قمّة حياة النعمة، أي الشهادة حتّى الموت، وهي أصدق شركة مع المسيح السافك دمه، والذي، بذبيحته، يصيّر قريبين مَن كانوا قبلًا بعيدين (أفسس ٢/١٣). «... إنّ شركة

(٢٧) المرجع نفسه رقم ٨٠–٨١.

جماعاتنا غير التامّة يضمّها، وإن بطريقة غير مرئيّة، بالتحام متين، ملءُ شركة القدّيسين، أي هؤلاء الذين يدخلون في شركةٍ مع المسيح الممجّد، في نهاية حياة أمينة للنعمة. هؤلاء القدّيسون يأتون من كلّ الكنائس والجماعات الكنسيّة التي فتحت أمامهم المدخل إلى شركة الخلاص»[٢٨].

جديد الرسالة: أسقف رومة في خدمة الشركة بين الكنائس

بعد أن استعرضنا فصول الرسالة الثلاثة نتنقل الآن إلى ما فيها من جديد في أمر رسالة أسقف رومة في خدمة الشركة بين الكنائس. لا أحد يجهل الصعوبة التي تشكّلها سلطة البابا في الطريق التي تسلكها الكنائس نحو الوحدة.

في هذه الرسالة المسكونيّة يخوض البابا يوحنّا بولس الثاني في الموضوع بشكل صريح، وكان البابا بولس السادس قد طرقه بتحفّظ. فالبابا الحالي يبدو أكثر إلحاحًا وإصرارًا في تفكيره والتزامه في المسألة المسكونيّة. ونرى أنّ الجملة الرئيسيّة في الرسالة هي التالية: «إنّي على يقين أنّي أحمل، من هذا القبيل، مسؤوليّة خاصّة، بالأخصّ عندما أرى التوق المسكونيّ المنبعث من غاليّة الجماعات المسيحيّة، وعندما أسمع النداء الموجّه إليّ بأن أجد أسلوبًا لممارسة الأولويّة منفتحًا على الوضع الراهن، ولكن بدون أي تخلٍّ عن جوهر رسالتها»[٢٩]. تميّز هذه الجملة تمييزًا صريحًا بين أمرين، الأوّل هو شكل ممارسة الأوّليّة (الأسلوب) والثاني جوهر الرسالة. إنّ في هذا التمييز بين الشكل والجوهر لأمر غنيّ لأنّ الواحد لا يلغي الآخر، بل يقيم علاقة جدليّة مخصبة بين الطرفين[٣٠].

---

(٢٨) المرجع نفسه رقم ٨٤.
(٢٩) المرجع نفسه رقم ٩٥.
(٣٠) راجع مقالة برنارد سيبويه المذكورة في الحاشية رقم ٢.

يعالج البابا يوحنّا بولس الثاني هذا الموضوع انطلاقًا من قراءة متجدّدة لنصوص العهد الجديد حول دور بطرس. يولي اليوم دارسو الكتاب المقدّس واللاهوتيّون اهتمامًا خاصًّا هذه النصوص المتعلّقة ببطرس، ولا أحد ينكر أهمّيّتها في مختلف تقاليد العهد الجديد[٣١]. فلا تتردّد الرسالة في التوقّف عند تأنيب يسوع لبطرس عندما يرفض التلميذ أن يسير على طريق الصليب الذي يتحدّث عنه يسوع (متّى ١٦/ ٢٣) كما أنّها تذكر أيضًا نكران بطرس للمعلّم أثناء الآلام (راجع يو ١٣/ ٣٨ و٢١/ ١٥-١٧). فإن توقّفت الرسالة عند مكانة بطرس وقيمتها الكنسيّة (متّى ١٦/ ١٨)، إلّا أنّ الرسالة نفسها لا تتغاضى في سياق النصّ عن معنى البعد الآخر في حياة الكنيسة، ألا وهو ضعف بطرس الرسول.

يظهر دور البابا من خلال الرسالة في الكنيسة الجامعة من حيث هو أسقف رومة التي عرفت استشهاد بطرس وبولس. فالبابا هو الذي يحافظ على قبرَي الرسولين. ولذلك فأسقف رومة هو خادم الشركة والوحدة بين جميع الكنائس. والشركة هي شركة الإيمان والمحبّة، وتتضمّن بالتالي «السهر». وإن عدنا إلى معنى كلمة «أسقف» وجدناها تحتوي على معنى مَن «يسهر على» وهو الذي يهتمّ «بنقل الكلمة، وعلى الاحتفال بالأسرار والليترجيا، وعلى الرسالة وعلى النظام وعلى الحياة المسيحيّة»[٣٢]. ولذلك يعود أيضًا «إلى خليفة بطرس أن يذكّر بمتطلّبات خير الكنيسة العامّ»[٣٣]. وهكذا كانت الحال في كنيسة الألف الأوّل: «مدّة ألف سنة، كان المسيحيّون متّحدين بالشركة الأخويّة في الإيمان وحياة الأسرار. وكانت إذا نشب بينها خلافات في العقيدة أو في النظام يستخدم الكرسيّ الرومانيّ سلطته بموافقة الجميع»[٣٤]. نحن هنا في صلب ما هو «جوهريّ»

(٣١) للعودة إلى نصوص العهد الجديد المتعلّقة بشخصيّة بطرس، راجع فهرس الأعلام في العهد الجديد (طبعة دار البشرق) في كلمة «بطرس» وراجع أيضًا معجم اللاهوت الكتابيّ (دار المشرق).

(٣٢) الرسالة «ليكونوا واحدًا» رقم ٩٤.

(٣٣) المرجع نفسه رقم ٩٤.

(٣٤) المرجع نفسه رقم ٩٥.

في وظيفة أسقف رومة، خليفة بطرس ونائبه، أو إن شئنا أن نستعمل تعبيرًا لاهوتيًّا قلنا ما هو من «حقّ إلهيّ» (الجوهر)، وما هو من مجال «بنية الكنيسة» (الشكل).

فإن، عدنا إلى الألف الأوّل من حياة الكنيسة وجدنا أنّ «الجوهر» لا يقوم على إدارة الكنيسة مباشرة: فإدارة الكنيسة المباشرة كانت موكلة إلى البطاركة الذين كان لهم الأوّليّة في مناطقهم. أمّا في الغرب فلم يكن هناك سوى كرسيّ رسوليّ واحد وبطريرك واحد، بينما كان هناك أربع بطاركة في الشرق (أورشليم، أنطاكية، الإسكندريّة، القسطنطينيّة). وبعد الانقسام الذي حصل في السنة ١٠٥٤ بين الشرق والغرب، اضطرّ أسقف رومة إلى ممارسة الوظيفتين من دون تمييز، فالواحدة في خدمة الكنيسة الجامعة والأخرى في إدارة الكنيسة اللاتينيّة، وريثة بطريركيّة الغرب. وقد تبلور هذا الوضع الجديد انطلاقًا من حركة تاريخيّة جعلت من الكنيسة اللاتينيّة الكنيسة الكاثوليكيّة التي بدأت تستقلّ ويبدًا رويدًا بالنسبة للسلطات السياسيّة من ناحية وتتمركز أكثر فأكثر في سلطة محلّيّة. ليس المطلوب أن نحكم على هذا التطوّر ولكن أن نقرّ أنّه من مجال عوارض التاريخ، وليس بالتالي غير قابل للتغيير. إنّ شكل ممارسة السلطة فيه قد خلّف ولا شكّ صورة دقيقة المعالم عن ممارسة السلطة البابويّة.

تقوم الحركة المسكونيّة بالضرورة على التمييز ما بين هاتين الوظيفتين. فالأمر واضح جدًّا بالنسبة للكنائس الأرثوذكسيّة التي حافظت على النظام البطريركيّ. وإنّه لأمر هامّ أيضًا بالنسبة للكنيسة الأنكليكانيّة التي حافظت على أساليب في الإدارة عريقة جدًّا. وكم بالأولى في مجال الحديث عن الكنائس المنحدرة من الإصلاح التي تشدّد على الأسس الكتابيّة لرئاسة البابا. ونحن نعلم أنّه لا شرط للعودة إلى الوحدة الكاملة سوى ما يفرضه الإيمان، كما تذكر ذلك الرسالة التي نحن في صدد دراستها.

إنّ التمييز بين الجوهر والشكل في هذه الرسالة يفتح طريقًا جديدة قد

تحمل لنا ثمارًا كثيرة في المستقبل. فالرسالة تشدّد أيضًا كما ذكرنا على أهمّيّة الاهتداء الذي عليه أن يوجّه المسيرة نحو الوحدة. فكلّ الكنائس معنيّة بهذا الاهتداء، بما فيها الكنيسة الكاثوليكيّة وعلينا في هذا المجال ألا ننتظر الآخر لكي يقوم بالخطوة الأولى، بل علينا نحن أن نأخذ المبادرة، كما يفعل الله عَبْر تاريخ الخلاص. وإن كان للكلمات أهمّيّة كبيرة للتعبير عن المبادرات، إلّا أنّ الأعمال هي التي تجسّد الرغبة الحقيقيّة في الشركة.

تستطيع الكنيسة الكاثوليكيّة أن تتّخذ مبادرتين تشرحان مهمّتها في خدمة الشركة في الكنيسة.

فالمبادرة الأولى هي في تكثيف الحوار العقائديّ حول موضوع الأوّليّة استنادًا إلى النتائج المكتسبة عَبْر الحوارات التي تابعها بثبات واستمراريّة المجلس البابويّ لوحدة المسيحيّين بالاتّفاق مع باقي الكنائس. وعلى هذا الحوار، كما ذكرنا أعلاه، أن يبحث في أسس رسالة الشركة وأن يميّز بين ما يمسّ جوهر هذه الرسالة والشكل التاريخيّ الذي اتّخذته عَبْر الزمن. ولا بدّ لكثير من الصعوبات أن تذلّل إن استمرّ الحوار في هذا الاتّجاه. ولِمَ لا نعتبر السنة ٢٠٠٠ كحدٍّ يجعلنا نسرع الخطى نحو هدف مشترك؟

أمّا المبادرة الثانية فتقوم على مواقف داخليّة تتّخذها الكنيسة الكاثوليكيّة في ممارسة الأوّليّة. ويقوم هذا الشكل الجديد في تطبيق الجماعيّة في الإدارة (Collegialité)، وذلك بأسلوب واقعيّ ومرئيّ يجسّد من خلال الأحداث تعليم المجمع الفاتيكانيّ الثاني: مع بطرس وتحت رئاسة بطرس. فبقدر ما يشاهد المسيحيّون العمل الجماعيّ بين أساقفة رومة وباقي الأساقفة في أمور تتعلّق بالمسائل الهامّة في حياة الكنيسة، فإنّهم يزدادون رجاءً ورغبةً في رؤية الشركة المحقّقة حول كرسيّ رومة. وهناك انفتاح آخر يقوم على إعطاء اجتماعات الأساقفة على مستوى البلد الواحد أو المنطقة أو القارّة مسؤوليّات تشريعيّة. وقد لوحظ في السنوات

الأخيرة أنّ لهذه اللقاءات كيانًا وحيويّة، فهناك مجلس أساقفة أميركا اللاتينيّة وأساقفة أفريقيا ومدغشقر وأساقفة آسيا وأخيرًا مجلس الأساقفة الأوروبيّين. وباستطاعتنا أيضًا أن نذكر الاجتماعات الدوريّة التي قام بها في السنوات الأخيرة بطاركة الشرق الكاثوليك. لقد أبدى غالبًا البابا يوحنّا بولس الثاني اهتمامه بكلّ ما باستطاعة هذه اللقاءات أن تقرّره على مستوى القارّات. أليس لدينا في ذلك طريق نحو اللامركزيّة المتدرّجة في إدارة الكنيسة، ولربّما التوسّع في بطريركيّة الغرب، انطلاقًا من صيغ جديدة موافقة لاحتياجات الزمن الحاضر؟ إنّ مثل هذا التطوّر على مستوى المؤسّسة لا يشكّل خطرًا على العقيدة، بل على العكس من ذلك يدفع بالحركة المسكونيّة نحو الأمام، لأنّه يظهر للعيان التمييز ما بين الجوهر والشكل في ممارسة خدمة الشركة.

يُسَرُّ البابا عندما يرى أنّ هذه المسألة المسكونيّة الصعبة هي مطروحة في الحوارات العقائديّة، ويذكر أنّ اللقاء المسكونيّ الذي نظّمته اللجنة «الإيمان والنظام» في ١٩٩٣ في سان جان دي كومپوستيل قد أثار هذا الموضوع. وفي الرسالة أيضًا حاشية تذكر اللجان العالميّة المختلفة والمشتركة التي عالجته. نستطيع أيضًا أن نزيد على ذلك آخر وثائق مجموعة الحوار المسكونيّ في فرنسا (Dombes): خدمة الشركة في الكنيسة الجامعة، والنصّ الذي أصدرته اللجنة الكاثوليكيّة - الأرثوذكسيّة المشتركة في فرنسا: «الأوّليّة الرومانيّة في شركة الكنائس».

في أمور كثيرة تهمّ حياة الإيمان والحياة اليوميّة بكلّ متطلّباتها، يسعى الإنسان إلى أن يصل إلى تحقيق الهدف، وهذا حسن وما أعظمه هدفًا يدخلنا في سرّ الشركة الإلهيّة. ولكن لكي يصل المؤمن إلى الهدف، لا بُدّ له كلّ يوم من أن يبدأ مسيرة الاهتداء ويتابعها. وسرّ هذه المسيرة هو الله الذي «لا ينعس ولا ينام» ولا يزال يتّخذ مبادرة الحبّ. ولكي لا نستسلم للتعب على دروب الوحدة، فلنتذكّر أنّ ذاك الذي خلقنا هو الذي يخلّصنا والذي هدى الكنيسة على طريق المصالحة هو الذي يقودها إلى ملء الشركة، شريطة أن نترك الروح القدس يعمل في قلبنا وعقلنا.

صدر حديثًا عن دار المشرق